عودة الكلمات

قصة بقلم عايدة مطرجي ادريس

ـ يبدو انك مصمم على عدم الاجابة . انهـــا المرة الثالثة التي يطلبك فيها المدير .

فقال من غير ان ينظر الي :

ـ الم تبلغيه انني لست في البيت ؟

ـ بلى ولكن يبدو ان هناك ملفـا هامـــا يجب ان تطلع عليه .

فقال في ايجاز يثير الاعصاب :

ـ سينتظر هو والملف .

واقتربت منه اقول بلهجة ملاطفة :

ـ الا ترافقنا في نزهة قصيرة ؟ اننا جميعا بحاجة الى الترويح عن النفس .

فقال : لا .

ـ اتريد اذن ان تبقى وحدك في البيت ؟

فاومأ برأسه ايجابا من غير ان يقول كلمة .

ـ انخرج وحدنا ، انا والاولاد ؟

ـ اذا احببت ذلك .

وكان هذا كافيا له ولي . وانسحبت وانا اغلق الباب خلفي . ان افضل حل للوضع وهو في ازمته هذه ان ادعه وشأنه . وتذكرت حوار الاسبوع الماضي القصير ، حيـن عدت ظهرا الى المنزل فوجدته فيه :

ـ الم تذهب الى المكتب ؟

ـ لا .

ـ عجبا . وعملك الذي تحبه ذلك الحب ..

فنظر الي في شبه استنكار :

ـ احبه ؟ انني امارسه .

قلت بعد لحظة صمت :

ـ هل يعني هذا انك هنا في البيت ، اسعد حالا ؟

فابتسم بسمة احسست صفرتها في ضلوعي . وقال:

ـ لا اهمية اطلاقا للمكان الذي اكون فيه .

ولم يشق علي ان ادرك قصده . كان الخارج شيئا تافها عنده . كان يلتمس الداخل ، يبحث عن هذا الذي اضاعه فيه . كنت قد سألته اكثر من مرة عما اذا كانت حياة البيت والاستقرار والعائلة قد عادت عليه بشعور الندم فاجابني : ان حياة التشرد واللامسؤولية لم تكن في طبعي . ومع ذلك فيبدو ان حياته هذه الجديدة كانت ، في نظري على الاقل ، هي سبب الازمة . أأكون اذن ، انا، المسؤولة الاولى بعد كل حساب ؟

***

حين عدت بالاولاد في المساء ، لم نجده في البيت . وحاولت ان اواجه الامر بهدوء . ولكن حركاتي وكلماتي كانت تشي بقلقي : لماذا خرج ، وكان عازما على البقاء ؟

غير ان انشغالي بتدريس الاولاد واطعامهم والباسهم لباس النوم ، انساني موقتا ساعتي الانتظار هاتين . وحين صمت الاولاد في سررهم انتشرت في البيت رهبة الغيبة وكانت تتفاقم بمضي الدقائق حتى تمنيت ان يستيقظ الاولاد من جديد ويملأوا البيت اصواتا . وفتحت جهاز التلفزيون فكان فلما صاخبا من افلام المطاردة والرصاص. ولكني لاحظت بعد فترة قصيرة اني لم اكن اتابع الصور، ولم أكن اسمع الطلقات، بل كان وجودي كله متجمعا في اذنين تنتظران وتتلهفان وتبتهلان ان تسمع جرس الباب.

ولم اسأله حين عاد ، بعد منتصف الليل بقليل اين كان ، ولا ماذا فعل ، بل قمت اعد له صحنا من الحساء الساخن وقطعة من الخبز المحمص بالجبنة . غير انه لم يأخذ الا الحساء واوى الى سريره من غير ان يقول لي شيئا . واندسست الى جانبه بلا حركة كأنما كان همي ان انقل بعض حرارتي الى جسمه الذي كنت اظنه باردا.

وهو الذي ايقظني في الليل حين احاط عنقي بذراعيه وجعل رأسي الى صدره في ذلك الوضع الذي كنت اطلبه واسعد به . وتمتمت له بالسؤال :

ـ هل تحبني ؟

فقال في الظلام :

ـ منذ عشرة اعوام وانت تطرحين هذا السؤال . الم تمليه ؟

وسألته :

ـ ولكن من هي تلك التي تشغلك عنا هذه الفترة ؟

فاحسست ابتسامته في ثنايا جوابه :

ـ اوه . لا استطيع ان احدد لك واحدة . انهـن كثيرات .

ثم صمت لحظة قبل ان يستطرد :

ـ ولكن المريع اني لم اعد التقي باحداهن !

وادركت انه يعود الى مصدر ازمته : بطلاته وابطاله الذين يحاول منذ اشهر طويلة ان يستدعيهم ويعايشهم ويعقد معهم من جديد تلك العلاقة الحميمة التي تملأ رأسه افكارا وخيالات وتملأ قلبه عواطف وانفعالات وتملأ اوراقه حروفا وكلمات .

وقال بما يشبه الهمس :

ـ الم تكوني سعيدة حين كنت تتلصصين علي من وراء الباب وانا مجتمع بهم ساعات طويلة ؟ اكنت تشعرين حقا بالغيرة ؟

ـ لا من الابطال ! . . .

واسعدني ان اسمع منه ضحكة صغيرة اشعرتني بأني استطعت ان اسري عنه . وقال لي :

ـ اما زلت تشكين بانك انت . . .

فسارعت اضع اصبعي على شفتيه وانا اقول :

ـ اعرف ماذا تريد ان تقول .

ولزم صمته لحظة طويلة حتى ظننت اني استطعت ان اجس باصبعي الكلام على شفتيه . ولكنه ما لبث ان سألني :

اتعديني بأن تسامحيني دائما ؟

وقبل ان يتاح لي التفكير بعبارته ، فضلا عن الرد عليها ، سمعنا صوت الصغير يرتفع من الغرفة المجاورة يطلب كوبا من الماء . فسارعت انهض وانا اشعر كأني مدفوعة بتفادي الاجابة عن سؤاله اكثر مني بتلبية طلب الصغير .

وجلبت كوب الماء وسقيته وملت على اختيه اغطيهما باللحاف الذي كانتا تتنافسان في دفعه عن جسميهما . وتباطأت لحظة اخرى في الغرفة حتى اذا عدت الى غرفتنا وجدته قد عاد الى النوم او تظاهر بذلك ، لا ادري . ودخلت الفراش من جديد وانا احاذر هذه المرة ان المسه .

***

كيف استطعت ان تتناسانا طوال هذه الايام الخمسة؟ وما الذي كنت تفعله في نهارك ؟ وما الذي كنت تفعله في ليلك ؟ كيف انفقت ساعاتك . وايـن قضيت اوقاتك ؟ خمسة ايام بلياليها . لا تسأل عن هذه التي خلفتها في الرعب والتمزق والجنون . واذا استطعت ان تنساها هي، فكيف استطعت ان تنساهم هم ؟ اما حننت الى العذوبة في وجه الكبرى ؟ والوسطى التي كان يناوشها المرض، اما خفت ان يتغلب عليها في غيبتك ؟ . وذلك الصغير الذي كنت تجد الدنيا كلها في ضمه اليك ، اما اشتاقت ذراعاك الى حرارة جسمه اللدن .

وهل استطعت حيث كنت ان تلقاهم ، ابطالك،اولئك الذين كانوا يفرون منك ؟ . ما الذي جنيته انا . الم احاول ان اوفر لك كل شيء ؟ لماذا تعذب نفسك وتعذبني معك. وماذا لو اعلنت عن عجزك واستسلامك ؟ ان كثيرين غيرك قد اعلنوا رضوخهم وارتضوا الامر الواقع . اما يكفيكما كسبته من شهرة ومجد. انني اعرف جوابك: انا لا استطيع ان اعلن استسلامي . الكلمات ما تزال تملأ نفسي كما يملأ الجنين احشاء امه . ولكن هذا كلام من الخيال . فاهبط الى الواقع وطلق هذا الهوس وتعال نعش حياة جديدة كحياة جميع البشر . حاول ان تنتمي الى طائفة العاديين وكف عن وهم منافسة الالهة . تقول انني لا استطيع ان اتصور تلك اللذة التـــي تحسها انت حين تضبط تلـك الاشباح الشاحبة المبهمة الاثيرية الراقصة من حولك . ولكن هل نقضي العمر كله ونحن نطارد هذه الاشباح وهي تفلت منا وتستعصي على ارادتنا . لقد عجزت انا ايضا وها انذا اعلن استسلامي ولم يبق لك الا ان تختار: ان تختار بيننا وبين اشباحك !

***

بعد ان هداني روى لي رحلته الغريبة ، رحلة غيبته.

لقد نزل في احد فنادق الجبل وكل غايته ان يقضي على ذلك الشعور بالاختناق الذي كان يعانيه منذ اسابيع. وكان يخرج منذ الصباح ولا يعود الى الفندق الا وقد هبط الليل . وبالرغم من ان هواء الجبل كان منعشا في تلك الايام الربيعية ، فانه عبثا ما كان يلتمس التفريج . وحين كان ينظر الى الشمس وهي تتوارى وراء الجبل كان يشعر بان الليل يتكاثف في نفسه . كان يمشي وحيدا بلا هدف وسط صحراء لا يستشرف فيها اي سراب . وتوقف ذات لحظة وانحنى فالتقط حجرا وقذف به نحو الوادي المريع في انحداره ، وراح يتأمل تدحرجه نحو الهاوية ، الم تكن حياته هو ايضا تنحدر نحو الهاوية ؟ وفكر : كيف للكلمات الحبلى في نفسه ان تتدحرج ؟ اليست هي التي تثقله فتشد قدميه الى الارض باثقال من رصاص . لقد كـان يشعر دائما ان تحت ابطيه اجنحة منطوية تريد ان تتحرر فيعجزها ذلك . واحس ثانية بان الظلام يغشي عينيه .

صدر حديثا :

الناس في بلادي

للشاعر صلاح عبد الصبور

طبعة جديدة من الديوان الاول لاحد زعماء مدرسة الشعر العربي الحديث واحد رواد النهضة الشعريـــة المعاصرة .

الثمن ٢٥٠ قرشا **منشورات دار الاداب**

وحدق في الهاوية امامه . ان كل شيء من حوله حالك ، اخرس . فلا زرقة السماء تلك ولا هذا الامتداد اللانهائي ولا حفيف الاشجار، ولا روعة المنظر، لا شيء من ذلك كله يحدثه . لقد خرس ذلك الحوار ، هنا ، ايضا، مع الطبيعة والاشياء كما كان اخرس هناك ، مع الانسان . وتحسس جسمه،فوجد يديه باردتين .وشعر بركبتيه تصطكان .وآمن ايمانا عميقا بانه يعيش الان في الزيف . وتساءل ايكون الحل ، اذا شاء المرء ان يقضي على الزيف ، هو في القضاء على حياته ؟

وانفتل عائدا في طريق المصيف واحس فجأة انه بحاجة الى البشر ، وان هذه الوحدة التي لجأ اليها حين فكر بمغادرة بيته لبضعة ايام انما كانت تزيده بعدا وعجزا. وحين وصل الشارع الرئيسي توقف امام واجهة للكتب. وقفزت الى عينيه فجأة حروف الفها . عجبا . انها روايته . وان تلك المكتبة الصغيرة في ذلك الجبل ما تزال وفية له . انها ما تزال تحتفظ به . واذن فان العالم لم يلفظه كما لفظ هو نفسه . واذن ، فان حروفه لم تمت . هذه الحروف، التي يحس الان انها تحمل دعوة غريبة له..

ودخل المكتبة فوجد البائع يعرض على شاب كتبا مختلفة كانت بينها روايته تلك . ورأى الشاب يتناولها فينظر الى غلافها ويقلب اوراقها ويقرأ بضع سطور فيها ثم يضعها جانبا . وتجمدت عيناه على هذا الكائن . كان بوده ان يقول له : « خذ هذا الكتاب فسأدفع انا ثمنه . اجل خذه . صادقني . صادق ماضي . اعد لي الثقة بحاضري . » وارتعش ان يرى الشاب يمد يده الى جيبه ويدفع ثمن الكتاب . وارتفع صوته هو ... اتراه قد ارتفع بالفعل ام خيل اليه انه قد ارتفع فيما هو ظل حبيسا في حنجرته ؟ واجس بشيء ما يتكسر في داخله ، واحس بجليد ابدي كان قد غلف نفسه يذوب فجأة . فوضع يده على كتف الشاب ونظر الى عينيه المندهشتين ثم دفعه امامه وهو يحيط كتفه بذراعه وسأله . لماذا ، لماذا اخذت الكتاب ؟ واندفع في بحر من الاسئلة واسترسل في الكلام كأنه الة اوتوماتيكية ادير زرها فلن تتوقف قبل ان تفرغ خمسة عشر عاما من الصمت . تقول انك كنت تبحث عن الكتاب .. انه مفقود في بلدتك ، وانت سعيد .. لقد سبق ان قرأت اشياء كثيرة لي .. انه يعجبك .. انك تحبه .. تحب بطله الاخير ؟ .. لقد قرأتها من قبل وتريد ان تعيد قراءتها ؟ انها ما تزال تحتفظ برونقها .. انه يعبر عن جيل من الشباب .. فيه تصوير بديع .. وبشر حقيقيون .. ومؤسيقى حنون .. صاخبة ، واصوات .. وشعر .. وحب عنيف وانسانية وماذا .. ماذا ؟ ..

وظل يصغي دقائق وساعات ودهورا الى صوت الشاب الذي يرافقه واحس بأن مغاليق نفسه تنفتح ليخرج منها ذلك الصوت الداخلي .وظل يمشي ويمشي والصوت في سمعه . ثم التفت فلم يجد رفيقه .

وشعر بأنه يسيخ . ولكنه وجد عزاء اشبه بالسعادة ان يكون مخلوقه ذاك الذي تركه في روايته الاخيرة يشيخ مثله ايضا . وتساءل صوته الداخلي لماذا لا ارافقه من جديد ؟ لقد مرت عليه احداث كثيرة ، عبر اعوام عديدة هي اعوامه . فلماذا لا يتابعه ؟ كيف فاته ذلك من قبل ، بل لماذا لا يصور حتى عجزه واستسلامه وفشله ؟

وقفل عائدا الى الفندق . ودلف الى غرفته . فاضاء المصباح فوق الطاولة الصغيرة التي كانت قائمة بجانب السرير وبدأ ينظر الى الكلمات تنهمر خطوطا سوداء على الورق الابيض .

***

قال لي بعد ان فرغت من تقليب الصفحات الثلاثين التي كتبها : ــ انتهى الامر . لقد عادت .

الاشباح . البطلات . الابطال . الكلمات : لم اسأله ما الذي عاد . لانه هو الذي سألني :

ــ اما وعدت بأن تسامحيني ؟

عايدة مطرجي ادريس

صدر حديثا

سفر الفقر والثورة

للشاعر عبد الوهاب البياتي

ديوان جديد يسترد فيه الشاعر المبدع وجهه العربي الاصيل ويعبر عن أعمق هموم جيلنا الثائر

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب